ذكرى قاسم امين (1)

أيها السادة

بهذا اليوم تتم السنة التاسعة على وفاة المرحوم قاسم بك امين وهو احد مؤسسي هذه الجامعة فله بها صلة اشد من صلة العضوية التي لنا جميعاً · هذه المناسبة كافية في الاحتفال بذكراه في هذا المعهد · على ان لقاسم غير هذه الصفة صفة اخرى ادعى الى الاحتفال بذكراه ودرسه في ارقى معهد علمي في مصر · هي انه احد كتابنا المجيدين الذين يحق لنا ان ندرسهم في كلية الآداب

لا اعرى أنصب السرادقات في الشوارع وذبح الذبائح واطعام المساكين للاحتفال بذكرى اعيان الوفيات خير أم درسهم وتحليل ملكاتهم واخلاقهم ونقد آثارهم في زاوية بمعزل عن الجمهور كما نفعل الآن · على الحالين لكل عائلة ان تحتفل بذكرى اعضائها الغائبين الى الابد بمقدار ما تسع طاقتها وعلى الوجه الذي يناسبها · ولقد كان قاسم احد آباء هذه العائلة العلمية التي انتم ابناؤها · وعقلاً من العقول الاولى لهذه البيئة التي انتم افرادها · لذلك حق عليكم ان تذكروه على نحو ما تذكرون آباءكم واخوتكم في النسب · لكل امرىء عائلة وعائلة المتعلم من حيث هو متعلم والمعلم من حيث هو معلم انما هي الجامعة التي ينتسب اليها · واقل ما يجب على الابن البار ان يذكر اباه وعلة وجوده · ونحن اعضاء الجامعة لا يسعنا من صنوف التكريم الا الدرس والنقد ولا يناسب اهل العلم الا سلوك مناهج القصد والفرار من الزخارف والابهة الباطلة

حسبنا بياناً لعلة هذه المسامرة ومناسبتها لنعرض فيما قصدنا لبحثه

لسنا في مقام رثاء او تأبين فذلك مقام قضيناه من قبل فلم يبق في النفس من آثار ألم المصيبة ما قد يعدل بها من حيث لا تشعر عن الانصاف الى التحيز · ولم يبق من قرب عهد العشرة ما يدعو الى المجاملة ولا من انتهاز الفرصة لاطراء الظن الحسن ما قد يفضي الى المبالغة في المذهب فقد خفف عنا الزمان هذه الحالات الوقتية كما هو شأنه · وما لنا بعد الا ان ننظر في آرائه النظر المجرد عن الغايات الوقتية

---

(١) محاضرة القاها حضرة الباحث الاجتماعي احمد بك لطفي السيد على طلبة الجامعة المصرية في ٣٠ ابريل سنة ١٩١٧

وانّ على هذا كما ذكرنا فانما ذكرنا مثلاً صالحاً واسوة حسنة لشباننا الذين يريدون ان يهذبوا انفسهم بالقيام عليها ليكونوا قوة عاملة ذات اثر في الجمعية الانسانية ويحصلوا تلك اللذة الكبرى التي حددها قاسم بقوله

« اللذة التي تجعل للحياة قيمة ليست حيازة الذهب ولاشرف النسب ولا علو المنصب ولا شيءٌ من الاشياء التي يجري وراءها الناس عادة وانما هي ان يكون الانسان قوة عاملة ذات اثر خالد في العالم »

لقاسم صورة معنوية لعلها من اقرب الصور التي عرفناها للمثل الاعلى للرجل في هذه البلاد وفي هذا الزمان · ولكنها مع ذلك قد تمثل في بعض الاذهان مشوهة او ناقصة بعض الشيء · فمن الناس من يراهُ من جهة واحدة هي جهة جرأته على عادات قومه وبعض معتقداتهم · وهؤلاء الناس الذين عالتهم صيحة الاصلاح الاجتماعي الذي عاناهُ ورأوا فيها مساساً بالدين وبالعادات وعبثاً بالشخصية المصرية بل بالمنعة العائلية ذاتها اولئك هم اهل « ليس في الامكان ابدع مما كان » · وآخرون ينظرون الى قاسم نظرة اكثر احتواء لصورته يرونهُ ثمرة ناضجة من ثمار التعاليم الاوربية في الشرق ويقدرون ملكاته من حيث هو كاتب تقديرهم لكثير من كتابنا الاخرين ولم يلتفتوا الى جهة التفكير العميق فيه · واني احاول ان ألم في هذه المسامرة الماماً بصورة منهُ تنسبة اقرب الى ما اعتقدهُ الحق معتمداً في ذلك على افكاره المكتوبة وآرائه المنشورة · خصوصاً مجموعة اقواله الموسومة « بالكلمات » لانها مذكرات كان يكتبها قاسم في كراسة جيب لم يعدّها بعد للنشر · ولقد كنت عندهُ يوماً تقرأ عليّ بعضاً منها وتركني افهم انهُ ربما نشرها ولكن بعد عهد بعيد فلم عاجلتهُ المنية بعد ذلك باسابيع حصلت عليها بواسطة صديقه حضرة صاحب المعالي سعد باشا زغلول وراجعتها انا والاستاذ عاطف بك بركات وطبعتها في الاسبوع الذي توفي فيه على ما اذكر · ولاشك في ان كراسة الجيب هي مستودع افكار المرء الخاصة وعبارة مشاعره العميقة فهي كذلك في رسم صورة منهُ اقرب الى الحقيقة من كل ما يرتبهُ وينشرهُ في حياته ويلاحظ فيه اعتبارات شتى عند النشر · وان كان قاسم هو في الواقع اشد اخلاصاً من ان يرائي واعظم شجاعة من ان يداجي في آرائه

لا ادعي لقاسم انهُ كان فيلسوفاً في صف الفلاسفة اولي المذاهب العامة في حقائق الموجودات باعتبار ما هي عليه او ارباب الانماط الخاصة في درس المعارف الانسانية وربطها بعضها ببعض · ولكننا نعرف لهُ انهُ مفكر عميق وكاتب مجيد

ليس من الصعب درس قاسم فانهُ لم يكن من الكتّاب القصصيين المكثرين مشتت المقاصد والافكار في غضون الروايات بل هو كاتب مقل يعرب عن مقاصدهِ وآرائهِ لا على ألسن ابطال القصص بل مضافة الى ذاتهِ وليس مثل كثير من المفكرين الذين يجتهدون في اخفاء شخصيتهم ويعممون قولهم ومذاهبهم تعميماً . بل يظهر من عبارة بعض كتاباتهِ ومن اشارة بعضها انهُ كان يعنى جد العناية بدرس نفسهِ ثم يؤوب من هذا الدرس بنتيجة يسطرها غالباً على انها ملاحظة شخصية او حالة نفسية لهُ ويلقيها احياناً على صورة عامة

كان قاسم ذا طبع جم الاستعداد للنبوغ خصوصاً في مقومات الهمة والشجاعة وصفات الرفعة . جاءهُ ذلك بالضرورة بالانتقال الوراثي لان جدهُ احد امراء الاكراد أُخذ ابنهُ رهينة الى الاستانة وجيء بهِ الى مصر فاستوطنها وبنى باحدى عقائل عائلة خطاب فكان قاسم اكبر ولدهِ منها . لم يرب قاسم على نحو ما يربى عليهِ اولاد الامراء او المكثرين في المال . بل ربي على الطريقة التي يربى بها اواسط الناس رغم الغل انواع التربية عيوباً واقبلها لاعتناق المذاهب الديمقراطية والايمان بفائدة العلم واولاها بافادة الاعتماد على النفس . تعلم في مدارس الحكومة كغيرهِ وأُرسل في البعثة العلمية مع زملائهِ الى فرنسا فحصل على ليسانس في القانون وعاد الى مصر سنة ١٨٨٥ وتنقل في الوظائف القضائية حتى مات وهو مستشار في الاستئناف كما تعلمون . بذلك ترون ان حياتهُ لم تكن عاصفية ولا ذات عقبات واحوال متعاكسة ولا شيئاً من ذلك مما كان شأنهُ ان عدّل كثيراً من صفات الرجال اولي الاقدار في الحياة . ولكن قابليتهُ الشريفة الارسطقراطية وتربيتهُ على اصول الديمقراطية الفرنساوية امتزجا تمام الامتزاج فالّفا صورة نفسية ذات ميول ارسطقراطية هذبتها تربية ديمقراطية

يظهر ان هذا القران الموفق بين الميول الارسطقراطية وبين التربية الديمقراطية قد هذب من نفس قاسم وعقلهِ ومشاعرهِ بان خلص نفسهُ مما لد نحيهِ نقائص الشرف وحلّ عقلهُ من قيود الوهم التي تقيد عقول طبقات الاشراف في كل زمان وفي كل مكان . وفتح لمشاعرهِ ابواب الطرق العلية لتعرف الخير والجمال سواء كان في الاعيان او في المعاني حتى لقد صار وهو قاضٍ يكره ان يحكم بالاعدام مهما قامت ادلة الادانة في حين ان معنى امير كردي فلا يقترن في الذهن الا بانهُ سفاك غالباً . وصار يرى من الحسن العفو عن كل خطيئة وما كانت عزة الاشراف في كل زمان الا مقترنة بحب الانتقام

هذا القران الموفق طبع قاسماً على صفات وميول جعلت لهُ شخصية ممتازة

من ذلك انه كان يجمع بين الحياء الشديد والجرأة المتناهية حتى كأنه كان معني بيت ليلى الاخيلية في توبة :

وتوبة احيى من فتاة حيية واجرأ من ليث بخفان خادر

نعم كان حييًا الى حد ان قيّر اطراقهُ في المجالس بأنهُ كِبْر فقيل لهُ في كثرة السكوت والاطراق فقال « كنا هممت بالخوض في الحديث ورددت فكرتي في نفسي كثيراً وجدتها لا تستحق ان تبدى فاعرضت عن الكلام » وفي ذلك من التواضع الحقيقي والبعد عن الزهو والاعجاب ما لا يخفى . وهذا المعنى متفق مع حاله من معاناة التفكير في نفسه وتعرفها ومتفق مع اقواله

ولا شك في ان تهذيب النفس وتعليمها بطريق ملاحظتها والغوص في اعماقها وتبيين حقيقتها وميولها وآمالها — كل ذلك من شأنه ان يجعل بين المرء وبين نفسه انساً واتصالاً يعيش في داخلها اكثر من عيشته في المضطرب الذي يحويه . وهذا ايضاً يفسر كثرة اطراقه وشدة حيائه

والواقع ان الحياء فضيلة عصماء لا تقع لامرىء الاَّ بعد ان تجتمع لهُ فضائل نفسية الى جهة العلو والكرامة . لان الحياء على ما نظن مصدرهُ في خوف المرء من السقوط امام نفسه ومن ان يسقط قدرهُ امام الناس

اما ضد الحي فهو ذلك المكشوف الوجه الذي لا يخاف من السقوط ولا من مقارفة الرذيلة فهو خلو من الشجاعة وليس فيه ما يشبه الشجاع كما قيل الاَّ اشتراكهُ واياهُ في معنى عدم الخوف في الجملة . فان الشجاع يتقدم على الخطر الحقيقي بمقدار ما ينبغي وحيثما ينبغي فهو متقدم امام الخطر وجبان امام السفالات

واما ان قاسماً كان شجاعاً فذلك معلوم في حياته وفي كتاباته التي كان يجبهُ بها معظم الناس من غير خوف وكأنهُ كان يعني نفسهُ اذ يقول :

« النفس الضعيفة تخفي لتتوقى وتنكمش امام الظالم وتهاب كل صاحب سلطة وضدها النفس القوية تجد في اظهار جرأتها على هؤلاء وامثالهم منفذاً يخرج منهُ ما يزيد عندها من القوة عن حاجة حياتها »

ويظهر ان الشجاعة الكردية التي هي احدى صفاته الجنسية قد تحولت بالتربية الى شجاعة ادبية عديمة النظير . يرى شيئاً دائماً قولهُ واعمالهُ في كل نوع من الاعمال التي زاولها حتى الاعمال المالية التي لم يكن مضطراً بها ولا مستعداً لها

من هذه الصفات ايضاً الشغف بالجميل فكان يعنى بتعرفه عناية شديدة مستمرة حتى اصبحت الفنون الجميلة له موضع لذة واحترام خاص . فلسنا نعلم واحداً من طبقة قاسم احتفل بتشييع جنازة عبده الحمولي بصفته رئيس فن الغناء وتفكر ولازم ما غناه الا هو . كذلك لم يشغل قاسماً ما هو فيه من ولاية القضاء ولا من التفكير والتأليف عن العناية بسماع الغناء وتعرف الجميل في الرسم والتصوير ومناظر الطبيعة . . . . الخ

وكان يظن ان اكبر الاسباب في انحطاط الامة المصرية تأخرها في الفنون الجميلة اذ يقول :

« لعل اكبر الاسباب في انحطاط الامة المصرية تأخرها في الفنون الجميلة والتمثيل والتصوير والموسيقى هذه الفنون ترمي جميعها على اختلاف موضوعها الى غاية واحدة هي تربية النفس على حب الجمال والكمال فاهمالها هو نقص في تهذيب الحواس والشعور »

اخذ قاسم نفسه بتعرف الجميل فتهذبت عنده ملكة الذوق وصفت الى حد انه قال :

« من اعظم ما يصاب به المرء ان يحرم من الذوق السليم »

لهذا النظر جعل انتقاده وارداً على سوء الذوق او جموده في كثير من كتاباته حتى فيما يتعلق بفتاة شارع الدواوين التي بعد ان وصفها قال عنها

« انها كانت ترسل الى المارة نظرات دعابة ورخاوة وحنان واستسلام وبالاجمال كان مجموعها تحريضاً مهيجاً لحواسهم »

لئن كانت شريعة من الشرائع او نوع من الآداب يبيح للمرأة الجميلة ان تخرج من دارها ولا قصد لها الا فتنة الناس فلا اقل من مراعاة حسن الذوق في مشيتها والاحتشام في نظراتها فان جمالها سيدل على نفسه من غير حاجة الى دلال

بهذا كله ترون ان قاسماً كان يحيى حياة مترفية قسطها من العظم والانتشار . عقل راجح بعيد مدى الادراك وشعور رقيق يهتز لدقائق المؤثرات وذوق مصفى يعيش منه في سعادة الذين يعرفون الجمال ويتذوقون طعومه . غير محروم مع ذلك كله من الشهوات بل يظهر من خلال سطوره انه كان كما يقولون « لكبار الرجال كبائر الشهوات » فان الذي يعلم ان قاسماً كان يعنى بتهذيب نفسه ويحاسبها الحساب الشديد ثم يقرأ كلماته الآتية —

« الفضيلة والرذيلة يتنازعان السلطة على نفس الانسان في جميع ادوار حياته فتارة تخضع للاولى وتارة تغلب عليها الثانية ولا يوجد رجل مهما بلغ من التربية والعلم يكون آمناً

من السقوط يوماً في الرذيلة ? لا يوجد رجل مهما احاطت به الرذيلة الا وفيه استعداد لان يأتي يوماً بافضل الاعمال

« وحقيقة الامر ان اخلاق الانسان ليست شيئاً يتم دفعة واحدة وليس لها حد تقف عنده انما هي في تحليل وتركيب في تكون مستمر يعتريها الانحلال زمناً وتعود بعده الى التماسك »

ويقرأ ايضاً هذه الكلمات :

« الانسان اسير الشهوات ما دام حيًّا وانما تختلف شهواته باختلاف سنه فشهوة اللعب عند الطفل وشهوة الحب عند الشاب وشهوة الطمع عند رجل الاربعين وشهوة السلطة عند شيخ الستين جميعها شهوات تعرض صاحبها للهفوات واقتراف الخطايا متى وقع فيها احدنا يجب عليه ان لا يترك نفسه الى تصرفها ولا يستصعب الخلاص منها ولا ييأس من نفسه بل عليه ان يقاومها كما يقاوم المريض علته عليه ان يوجه ارادته الى مصارعتها والتغلب عليها عليه ان يحول فكره عن الامس الذي كان فيه قبيحاً وينظر الى غده الذي يكون فيه جميلاً لا يطلب الكمال من المرء وانما يطلب منه ان يكون في كل يوم احسن منه في اليوم الذي مضى . في ميدان الحرب لا يكون ثبات الجأش الا عند الرجل الذي حضر وقائع سابقة ووقف امام العدو وقاتل يوماً مهاجماً ويوماً مدافعاً . كذلك الحال في جهاد النفس لا تجد ثبات الجنان الا عند الرجل الذي عرض نفسه الى استهواء الشهوات وخدائع اللذات فاذا اختبرها بالتجربة وتغلب عليها بعد ذلك كسب قوة الحكم على نفسه التي هي الفضيلة الحقيقية خلافاً للرجل الذي حجب عن جواذب الشهوات فانه متى وجد امام فرص مرغبة فيها لا يقاوم سلطانها الا قليلاً واذا سلم في نفسه مرة لا يستطيع الخلاص منها »

ان من يقرأ هذه الكلمات واشباهها لقاسم يحكم بانه كان بينه وبين نفسه حرب مستمرة يغالبها وتغالبه شأن الحكيم الذي يريد ان يبلغ الادب السامي آخذاً باسبابه

كثيراً ما شاهدت من شباننا على اثر عودتهم من الدراسة في اوربا قلقاً او نوعاً من الحزن تبين آثاره على هيأتهم واقوالهم واعمالهم وما شككت في ان هذا الحزن انما هو نتيجة المقارنة بين حال البيئات التي كانوا يعيشون فيها هنالك وبين البيئة التي تحويهم . كذلك قاسم ما اظنه نجا من هذه الحال بل اعترته على نوع اشد مناسب لمقدار مطامعه الواسعة ومداركه القوية ومشاعره الرقيقة . وربما استحالت هذه الحال بمساعدة ما به من الوقار الجنسي الى ملكة يمر عليها سكونه واطراقه ويفسرها كثير من كاتبيه الى حد يجعل المرء يراه متطيراً اكثر منه متفائلاً

البقية تأتي